اللسانيات التمهيدية في الكتابات العربية الحديثة بين تمثُّل المفهوم اللساني وواقع التلقي العربي

introductory linguistics in modern arabic writings between the linguistic concept and the fact of Arabic receiving

ماصري هاجر hadjer.masri @univ- biskra

جامعة محمد خيضر- بسكرة

بن شوية وسام benchouiaw@gmail.com

جامعة الحاج لخضر- باتنة

تاريخ الاستلام: 2020/12/01 تاريخ القبول: 2020/12/04 تاريخ النشر:2021/01/01

ملخص :

لقد مثَّلت اللسانيات التمهيدية المنطلقَ الأساس لقراءة البحث اللسانيّ العربيّ، إذ تهدف إلى جعل القارئ في مركزية البحث فاحتلت بذلك مكانة هامة في سيرورة الدرس اللسانيّ العربيّ رغم ما شابها من إشكالات منهجية تخلَّلت الموضوع من جهة، والمنهج من جهة أخرى، وفي ظل فوضى التصورات اللسانية العربية التي باءت بها مقدِّمات البحوث يضطلع الواقع العربي شاهدًا على جملة من نتائج التلقي العربي من حيث الموضوع والمنهج، فأمَّا من حيث الموضوع فقد اقتصر التمهيديون على عَدِّ اللغة جزءًا من التفكير اللُغوي في حين تروم اللسانيات فهم قوانين اللغة البشرية.

كلمات مفتاحية: اللسانيات، الكتابة التمهيدية، المفهوم اللساني، اللسانيات العربية

Abstract: research,as it aims to place the arab reader at the center of the linguistic research. Where it took an important position in the processof the arabic linguistic lesson despite similar methodological problemes that pervaded the theme on the one hand and the methodololgy in the other hand In the light of the chaos of the arab linguistiperceptions that acceded the introductory reaserches, the arab reality witnesses a number of results of the arab reseption in terms of the subject and the The introductory linguistics represented the basic starting point for reading the arabic linguistic method.as for the subject, the introductory reaserches were limited to counting the language as part of the lunguistic thinking ,while the linguistics intend to understand the laws of the human language.

Keywords : linguistics ; introductory writing ; linguistic concept ; arabic linguistics.

1 مقدمة:

استطاعت اللسانيات Linguistic منذ عقود خلَت تحديد موضوعها المتمثَّل في الدراسة العلمية للغة[1]، فصفة العلمية التي نادت بها طاغية على سيرورة البحث موضوعًا ومنهجًا، فالبنية اللغوية المشتغَلُ عليها تتغيَّ الكشفَ عن خصائص اللسان صوتًا وصرفًا ونحوًا ودلالةً ومعجماً، فضبطُ قوانين الاشتغال على مستوى العلم يخضع لشروط البحث اللساني الذي بات قِبلة العلم الحديث منذ مطلع القرن العشرين، وكدأب العلوم بعامة تمتَتِحُ اللسانيات منهجها وإجراءاتها وأدواتها المعرفية من ماهية وطبيعة العلم الحديث، الذي كان سائدًا زمن ذاك ولقد تأثَّرت فأثَّرت وأقرَّت محاورَ ثلاثةً سعت لتمثُّلها؛ مفهوم العلم وموضوع العلم وكذا منهجه، فهي بذلك تروم الممارسة البحثية فيما يحكم الظواهر اللغوية من قوانين كلية، وإذا جاز لنا وسم النظرية اللسانية الغربية بالبحث اللساني العام، فإنه مما يُفرض على الدارس والمشتغل باللسانيات النظر في موقعية البحث اللساني العربي من جهة، وإشكال تلقيه موضوعًا ومنهجًا ومفهومًا من جهة أخرى، خاصة وقد باتت اللسانيات تحتل موقعًا مركزيًا داخل العلوم الإنسانية، الشيء الذي جعلها تفرض عليها نموذجها التحليلي ومعجمها المفهومي[2] الذي رامت الثقافة العربية تمثل مفاهيمه واستشراف طبيعته منذ بداية سَنِّ العتبات الأولى للدرس اللساني العربي رغبة في الخروج من الحائط المسدود الذي وقفت عنده دراسات النحو والصرف واللغة.[3]

فبانتقال اللسانيات إلى الفكرِ العربيّ ازدادت الحاجة إلى فهم آليات انتقالها؛ فعشوائيةُ الكتابة أفرزت العديدَ من الأصناف الكتابية التي رامت التعريفَ بأسس ومبادئ وأصول هذا الوافد الحيّ الجديدِ استيعابًا وهضمًا، وقد عُرف هذا الصنف من الكتابة اللسانية العربية باللسانيات التمهيدية التي تروم بالدرجة الأولى تحديد موضوع اللسانيات كعلم كوني غيرِ خاضعٍ لخصوصية التجنيس، فالتعرف على مناهج النظر اللساني العربي ومحاولة التعريف بها في الثقافة العربية بغية تقديمها للقارئ العربي يتَّخِذ صورًا مختلفة وصراعا تتجاذبه مرجعيات مختلفة بين ما يجنح إلى المفهوم اللساني كما هو، وبين ما

تبوء به مقدِّمات الكتب من ممارسة لصبغ تلك المعارف بصبغة خصوصية النظرية اللغوية العربية، وهو ما شكَّل منطلق الإشكالات في الكتابة اللسانية التمهيدية التي مثلَّت اللحظة الزمنية المبكرة لعلاقة القارئ العربي بالمعرفة اللسانية الحديثة. وعليه يمكن استحضار جملة من التساؤلات التي ظلت تصارع طلبًا للوجود ممثلة في :

- هل مثَّلت الكتابة اللسانية التمهيدية المعرفة اللسانية الحديثة فعلاً من حيث الموضوع والمنهج، أم أنها في كثير من الأحيان ترتبك في نقل المنهج االغربي إن على مستوى مقدِّمات الكتب أم مضامينها؟
- وهل الواقع اللساني العربي بما يعانيه من عراقيلَ يتكئ في جزء منه على الكتابة التمهيدية لتكون بذلك أحد أسباب عطالته ؟

هذه وغيرها، العديد من الأسئلة التي لازلت تُطرح على الدرس اللساني العربي الذي ما فتئ يُجيب إجابات هامشية لا تقدِّم بأية حال حلولا منطقية تتغذى من منهجية علمية، ولعل هذا الوضع يؤول في شِق منه إلى إشكالات حاقت بالكتابة العربية في بواكيرها التمهيدية وهو ما يسعى هذا البحث الكشف عنه بما طرحه من تصورات.

2. واقع الكتابة اللسانية التمهيدية في ظل النشاط اللساني العربي: لقد أخذ اللسانيون العرب على أنفسهم التعريف بأصول علم اللغة الحديث، وقد فرضت عليهم هذه الغاية شكل المقارنة بين ما هو كائن في الدراسات اللغوية القديمة وبين ما جادت به سفور المباحث اللسانية الحديثة، إذ يعتقد أصحاب هذا التَّوجه أن من شأن ذلك مساعدة القارئ على فهم مبادئ اللسانيات الحديثة، وقد تحول ذلك إلى اقتناع[4] بضرورة الربط بين التراث ومناهج علم اللغة الحديث متخذين بذلك أدوات المقارنة والمقابلة بغية تأصيل علم اللغة[5].

فمنذ تاريخ 1947م تدرجت الكتابة اللسانية العربية متفاوتة في قيمتها المنهجية ومستواها العلمي بالقياس لما وصل إليه البحث اللساني العام، وبلغت بعض الكتابات اللسانية العربية التي تُعرِّف باللسانيات مستوى جيدًا، إذ تعكس هذه الأخيرة مهما

اختلفت مشاربها الفكرية وطبيعتها النظرية والمعرفية الاهتمامَ البالغَ الذي توليه الثقافة العربية الحديثة للسانيات[6]؛ فالكتابة اللسانية التمهيدية هي ذلك النوع من الكتابة التي تتخذ من النظريات اللسانية وقضاياها وأعلامها موضوعًا لها، بمنهج تعليمي يهدف الإحاطة بحيثيات المعرفة اللسانية سواءً على مستوى بنية اللغة، أم على مستوى موضوعها رغم ما قد يُعيق هذا النوع من الكتابة من تصنيف دقيق لنتاج اللسانيين العرب، فتنوُع حركة التأليف وتشعُب طرائق الطرح وآليات الفهم وخصوصية العرض يجعل من اللساني في الثقافة العربية "يأخذ بأكثر من موقف دفعة واحدة أو ينتقل من موقف إلى آخر خلال فترات حياته العلمية، ونظرًا للتطورات التي عرفتها النظريات اللسانية، فقد عرف الخطاب اللساني بدوره اتجاهات متعددة"[7]، فهذا النوع من التأليف اللساني يهدف إلى سَنِّ نقط الارتكاز لقارئ يجهل أصول علم اللسانيات، إذ يهدف إلى إدخال القارئ إلى صميم المنهجية اللسانية بإتاحة الفرصة لاكتساب سهولة التعامل مع المفاهيم والأفكار اللسانية[8].

ولما كانت اللسانيات منهجًا علميًا متماسكًا له أدواته الواضحة وإجراءاته القوية و مصطلحاته المستقرة ونموذجًا لتطبيق مناهج العلم[9]، سعى الكتَّاب التمهيديون إلى محاولة تمثُّل منهجه غير أن الواقع اللغوي يشي بخلط بين مستويات الدراسة اللغوية يظهر ذلك في طروحاتهم التي تخلط بين اللسانيات وعلم اللغة وفقه اللغة، وهي مجالات في حقيقة الأمر مختلفة المناهج والتصورات والمواقف من الظاهرة اللغوية ممَّا أدى إلى اضطرابات منهجية زادت من صعوبة البحث والدراسات وضبط المفاهيم[10]. ولعل هذه الممارسة التي أبانت عن واقع الكتابة التمهيدية تكشف عن سيرورة منهجية حاول اللسانيون تمثُّلها طلبا لتحقيق الغاية التعريفية بالمنجز الغربي، غير أن مقدِّمات أطاريحهم تُعرب عن إشكالات أبرزها الجنوح لما يُعرف بالتأصيل من منطلق الجمع والمقارنة وهي أدوات معرفية تسهم في تعزيز الخلط على المتلقي في كثير من الأحيان؛ فالقارئ المبتدئ الذي أُقحم في دائرة البحث اللساني يبتغي سُلماً تلقينيا هو غاية في التدرُّج سواء في استيعاب المصطلحات والمفاهيم أم تمثُّل حدود للاتصال والانفصال بين منظومتين

تحكمهما أنساق تتباين تباين الموضوع والمنهج والغاية، وكان من البدهي إذا ما روم تبسيط المعرفة اللسانية التي أُريدَ لها أن تكون جزءاً من الثقافة العربية محاولة فهم أبعاد الفهم على مستوى القارئين العربي والمتخصص على حد سواء و هو ما من شأنه المساهمة في تبيان العلاقة بين الطروحات اللسانية التمهيدية والغاية المنشودة منها، من تعريف بالمبادئ بتمهيد للمعرفة قصد تقريبها.

3. الغاية التبسيطية للكتابة اللسانية التمهيدية : إن تقديم النظرية اللسانية الغربية بناءً على وضعية خاصة تجعل من التعليم غايةً وهدفًا أحدُ اهتمامات الدرس اللسانيِّ العربيِّ بلهَ الهدف الأساس الذي رامته هذه الوجهة من البحث، وهو ما جعل كل مؤلَّف من المؤلفات التمهيدية ينهض بـ"بنية خطابية متكاملة علمياً ومنهجياً، بدءًا بعنوان الكتاب مرورًا بمقدمته وعناوين أقسامه وأبوابه وفصوله وصولاً إلى خاتمته"[(11)]، فالعنوان مكون نصيٍّ لا يقل أهمية عن المكونات النصية الأخرى، إنه سلطة النص وواجهته الإعلامية التي تمارِس على المتلقي إكراهاً أدبياً وهو ما يؤهله للكشف عن طبيعة النص والإسهام في فك غموضه[(12)]،ومن الأكيد أن التمهيديين لم يكونوا ليُغفلوا وسائل تحقيق الغاية المطلوبة التي تجنح للتبسيط والتعليم، وقد ربط حافظ اسماعيلي علوي هذه الغاية بوسائل الإغراء ولفت الانتباه والميل إلى جانب التبسيط ما وسِع اللساني ذلك، فالتفاعل والانسجام بين النص والقارئ تُعزِّزه الوظيفة التأثيرية التي يمارسها خطاب العناوين من مِثل: مدخل إلى علم اللغة، مدخل للسانيات سوسير، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دروس في السيميائيات، توطئة لدراسة علم اللغة، مقدمة في اللسانيات...إلخ؛ فالناظر في تلكم المؤلفات يلفي النية معقودة بشكل صريح على تزويد القارئ بالعدَّة اللسانية بعيدا عن التعقيد المعرفيِّ، فدعوة القارئ إلى مثل هذه العناوين كفيل باستدراجه فهي لا تنفصل عن باقي أصناف الكتابة اللسانية الصوتية أو التوليدية وإن كانت لاتحيد عنها في كثير من الأحيان درءًا لأي تكثيف أو التباس.

ولقد عمد اللسانيون العرب من خلال مؤلفاتهم إلى آلية الانتقاء المفهومي لمقدمات خطابهم قصد ضمان عملية التفاعل بين النص والمنصوص، والتي تضمن إيصال المعرفة

الحديثة إلى المتلقي المبتدئ، ويُعد تبعًا لذلك محمود السعران من أوائل اللسانيين الذين عمدوا إلى تثبيت مبادئ علم اللغة الحديث في الأقطار العربية من خلال مؤلفه الموسوم بـعلم اللغة مقدمة للقارئ العربي، إذ يقول في مقدمتـه:" ولذلك مهدت لكتابي هذا بمقدمة طويلة شيئا ما لذهن القارئ الشادي لتلقي أصول هذا العلم بأيسر السبل وأدنى مجهود، ولقد حاولت تبسيط حقائق هذا العلم ما وسعني التبسيط مع حرصي على الدقة والسلامة حتى يستقل القارئ المبتدئ بتحصيل ما فيه ومدارسته، وينتقل منه آمنًا إلى مطالعة أصول هذا العلم منقولة إلى العربية أو مكتوبة بلغاتها"[13]، ولقد رصد السعران جملة من الصعوبات التي تقف في طريق علم اللغة العربي كان أبرزها وضع المصطلح اللغوي بالعربية، إذ اتسم بكثير من الخلط والغموض نتيجة سوء فهم تصورات علم اللغة الحديث، وقد أسهم بذلك اللسانيون العرب في تكريس وضعية اضطراب المصطلح اللغوي إما على مستوى التأليف أو الترجمة[14].

ويمثل من جهة أخرى مؤلف مصطفى غلفان اللسانيات العامة أنموذجًا إذا ما قورن بالمنتوج اللساني السابق إذ يتطرق في خطابه إلى طبيعة علم اللغة ومفاهيمه فيطمح تبعا لذلك إلى استقطاب القارئ العربي لاسيما فئـة من القراء وهم المبتدئون في اللسانيات أو الراغبون في استثمارها في مجالات معرفية أخرى كالأدب أو النقد[15]، فحاجة القارئ والباحث إلى معرفة حديثة سليمة من الاختلالات المنهجية و المفهومية باتت حاجة ماسة تتطلبها المكتبة اللسانية العربية. فالغاية التعليمية التي تظهر من خلال هذا النوع من الكتابة مغيَّبة عنها وهو غياب كما يعبِّر عنه الدارسون يمكن أن يُعزى إلى جهل واضح بالمقصود من هذه الغاية، ما يعمِّق إشكالات التلقي ويزيدها تعقيدًا.

4. السّمات المنهجية للكتابة اللسانية التمهيدية: الحديث عمَّا يعرف بالسمات المنهجية حديث في عمقه عن المنهج المتناول في المؤلَّف موضوعًا ومنهجًا، فالناظر فيما أُثِر من كتابات تمهيدية يَلفي المنهج قاصرًا عن استيفاء محدداته ذلك أنَّ حالَ" مجتمعِنا العلميّ المعاصرِ في العالم العربي والعالم الثالث عمومًا، مجتمع يقوم من حيث المنهج العلمي- في أحسن الأحوال- على تجميع الظواهر وتبويب المواد، تماما كما يقوم في حياته الاجتماعية

والاقتصادية على تكديس الأشياء، وإذا ارتقى كما هي الحال في فقه اللغة، قام بعد تكديس الظواهر بوصف صلاتها بعضها ببعض ووضعها بناءًا على الوصف ضمن جداول وقوائم جاهلاً أنه لابد من نظرية عامة تشرح وتبني وتفكّك وتركّب وتفسّر الكيفية التي تعمل بها هذه الظواهر وتبنيها "[16]، ويمثل مؤلَّف علي عبد الواحد وافي علم اللغة [17] أنموذجا لأول كتابة عربية تمهيدية سعت لنقل الثقافة اللسانية الغربية إلى الواقع العربي، خاصة وقد كان القارئ العربي في تلك الحِقبة بعيدًا عن مواكبة العلم اللغوي ومستجداته في مجال اللغة، وقد حاول بذلك المؤلِّف تقديم المعرفة اللسانية بما طبعها من ثقافة ذلك العصر فوضوح الموضوع من جهة وتحديد مجالاته تحديدًا دقيقا، يخضع لمعايير قد تصيبُ أحيانا وتجانب الصواب أخرى، ومرد ذلك دون جحدٍ إلى حداثة التجربة وحماسة المؤلف.

ولقد أبان علي عبد الواحد وافي عن ماهية اللغة إذ نالت النصيب الأوفر من حظ الكتاب كونها مجال الدراسة وما استصحب هذه الأخيرة من نشأة علم اللغة عند الإنسان والطفل، وعن حياة اللغة إضافة إلى فصائل اللغات والتطور اللغوي العام والدلالة وتطورها وأصوات اللغة وحياتها[18]، وإن كان لهذه القضايا المعروفة أهميتها المعرفية في إطار لغويات القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، إذ تمتح شرعيتها بالأساس من صميم مباحث سوسيولوجية اللغة والجغرافية اللسانية أكثر مما هي موضوع اللسانيات العامة[19] فالمدقق في بنية الكتاب التكوينية يجد الموضوعات بدءًا من تعريف علم اللغة تتداخل تداخلاً ينأى بها عن حقيقة المجال اللساني العربي الذي شاع في أوروبا خلال النصف الأول من القرن العشرين، وقد سارت المؤلفات التمهيدية والمصنفات المتعاقبة هذه السيرة عقدًا من الزمن، ذلك أن واقع ما يكتب تحت عنوان علم اللغة على مستوى الكتب أو ما تحتضنه الدوريات المختصة أو ما تتسابق إليه الشروحات السيارة ذات الرواج الغالب يشي بكونه "حيف فكري " قد يُحدث يومًا ما قطيعة معرفية يَعسُر بعد رتقها[20]، ولم يفرق المؤلِّف بين المنهج المتَّبع في تلكم المعارف فرُصد الخلط بين المنهج التاريخي والمنهج الوصفي في تقسيمه لفروع علم اللغة فهو ينطلق من المستوى الصوتي

والدلالي ليُقسِّم مستويات البحث اللغوي، ويرى أن علم الأصوات وعلم الدلالة يؤلفان معًا أهم فروع علم اللغة كما يؤكد هذا الحكم ما ساقه في الفصل معقودًا لتاريخ البحوث اللغوية، إذ ورد خِلواً من أنصار الدرس اللساني الوصفي[21].

فالموضوعات التي ساقها المؤلف في المتن تروم البحث في قضايا نشأة اللغة الإنسانية، وكذا علم اللهجات إضافة إلى البحوث المتعلقة بحياة اللغة وما يطرأ عليها من تغيرات وهو ما يتعارض مع مباحث علم اللغة الحديث ذلك أن اللسانيات "علم يتأسس على جذعٍ كليّ يتفرع أفنانا بحسب المشارب وحقول الاهتمام، وذلك الجذع في كل المعارف هو الجانب النظري من ذلك العلم "[22].فموضوع اللسانيات ليس هو فلسفة اللغة أو تطور الصيغ اللغوية ولكنه أولا الحقيقة النابعة من داخل اللسان كما يسعى علم اللغة إلى أن يتشكل كعلم صوري دقيق ونسقي[23].

غير أن الكتابة التمهيدية تنأى عن هذا الضرب العلمي نأيا بعيدًا، فالطرح السابق يُعمِّق الهوة بين العلم والتعليم فالطالب المبتدئ يعسُر عليه أن يجد ضالته بين تلكم التَّصورات و المذاهب اللغوية الموجودة بين دفتي المؤلفات التمهيدية التي تتداخل و الفكر اللغوي العربي القديم في نظرته للغة و لمستوياتها بل ولطبيعة المنهج ذاته، فعملية التأليف لن تكون مُجديةً ما لم تتحدَّد سلفا طبيعة القضايا التي يتأسس عليها هذا العلم وكذا ماهية مصطلحاته بالنظر إلى فلسفة العلم المنوط بها ضبط حدوده وآليات اشتغاله فلقد أخذ التمهيديون على أنفسهم إقامة علاقات الربط والارتباط ظناً منهم أن البعد العالمي لأيّ ثقافة بات حِكرا على استحضار مبادئ الألسنية وهو في حقيقته نتاج سلبي من الناحية المنهجية فهي تجعل من المبتدئ الذي لا يعلم من تراثه إلا معارف بسيطة عن الصوت والنحو والدلالة نازعا إلى الاعتقاد الخاطئ بأن هذه المعرفة تُغني عن كثير من المباحث التي جاءت بها اللسانيات، بل يتصور الكثير أن الجهاز المصطلحي واحد، فالصوت هو الفونيم و التركيب هو النحو ...إلخ ،وغير ذلك مما من شأنه تكريس الالتباس، والذي يطالعنا في أول مظهر له ممثل في مصطلح linguistics الذي اتخذ المعاني الآتية:

- الدراسة المقارنة والتاريخية للغات كالنحو المقارن والفيلولوجيا المقارنة.

- العلم الحديث الذي موضوعه اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها، وينضوي تحته كل المصطلحات المعروفة من علم اللهجات وعلم الاشتقاق والنحو والمعجم والصرف والفيلولوجيا و علم الأصوات العام وعلم الدلالة وعلم الأسلوب وعلم اللغة التطبيقي وعلم اللغة التاريخي.

ومعلومٌ أن الإلمام بمصادر عمل لساني معين يُمكِّن من إدراك طبيعة القضايا والظواهر المتناولة،كما يسمح بالوقوف على مختلف التطورات التي يعرفها البحث اللساني فالملاحظ على مصادر علم اللغة لعبد الواحد وافي أنها تنتمي لحقبة تاريخية محددة من تاريخ الدراسات اللغوية ممثلة في المنهج التاريخي المتأثِر بعلم الاجتماع الدوركايمي ويؤكد هذا الطرح ما ساقه من مراجع باللغة الفرنسية تعكس بروز اتجاه معيّن في الدرس اللغوي[24].

وعليه فالكتاب خِلوٌ من المفاهيم الأساسية للتحليل اللغوي الحديث التي يُفترض تلقيها لكل مبتدئ في هذا العلم، وهذه المفاهيم ممثلة في البنية والعلاقات والتقطيع والاستبدال، ولقد أخذ مصطفى غلفان على الكتاب مايلي:[25]

- غياب أي إحالة للمدرسة اللسانية الأمريكية ممثلة في كتاب (اللغة) لبلومفيلد الصادر عام 1933فالكتابة التمهيدية تعتمد أحيانا أسلوب التجاهل كما يسميه مصطفى غلفان في حق المدارس اللسانية، إذ لا يتم إيرادها رغم أهميتها النظرية والمنهجية ودورها التاريخي في تطور اللسانيات نفسها نظرا لتبِعات ايديولوجية لا تتفق مع الوجهة اللسانية للنظرية على أنه يفترض التمسك بالهدف الأساس ممثلا في التقديم والتعريف.
- خلوه من كل الاتجاهات غير الفرنسية كحلقة براغ اللسانية 1926، ومدرسة كونيهاجن 1931.
- غياب المصادر الأساس المؤسسة لماهية العلم.
- اتّسام الكتاب بطابع التصنيف والعرض التاريخي العام لقضايا البحث اللغوي مركزًا على فروع علم اللغة في علاقته بالعلوم الأخرى.

1.4. الخلل المنهجي في تحديد مجال البحث اللساني التمهيدية: إن المتتبع لخطاب الكتابة التمهيدية عند اللسانيين العرب يلفي تذبذبًا ظاهرًا على مستوى تحديد العلم؛ إذ تناولوا اللغة في أبعادها العامة التاريخية والحضارية والاجتماعية والنفسية، ولم تهتم هذه الأخيرة بالمبادئ اللسانية العامة إلا في حالات نادرة[26]، والملاحظ أن تبسيط المعرفة اللسانية ليس دائمًا هو الغاية النهائية لكثير من الكتابات اللسانية التمهيدية فقد يكون الهدف من الكتابة التمهيدية ربط المفاهيم والنظريات اللسانية ومناهج التحليل فيها بالتصورات اللغوية العربية القديمة[27]، فتتخذ تبعًا لذلك هذه الكتابة لنفسها الحق في الربط و المقارنة اقتناعا منها بضرورة الربط بين التراث العربي القديم ومناهج علم اللغة الحديث و هو ما يمثل إشكالا منهجيا وُسِم به هذا النوع من الكتابة[28].

ولعل هذا الإشكال يطالعنا عند الوقوف على أحد المؤلفات التمهيدية التي رامت التعريف بالمبادئ العامة في اللسانيات ممثلا في مؤلف خولة طالب الإبراهيمي، حيث ترى الباحثة أن اتجاهات البحث اللساني تغلبُ عليه نزعتان رئيسيتان: النزعة الحسية النقلية (بالمفهوم العربي القديم) التي تعتمد على المشاهدة والاستقراء ومعاينة الأحداث وتصنيفها لاستنباط القوانين، والنزعة العقلية (بالمفهوم العربي القديم) الافتراضية الاستنتاجية التي تنطلق من مسلَّمة ثم تولد عنها مجموعة من القواعد تستنتجها بفضل عمليات معينة[29]، فالملاحظ على هذا الطرح أنها قد أحدثت شرخاً بين ما ينتظره القارئ وبين ما يعلمه من نزعات الدرس اللغوي القديم وكان الأجدى أن تقف عند وصف الاتجاهات كما هي في الدرس اللساني الحديث حتى يتسنى للطالب المبتدئ والعامي والمتخصص فهم ماهيتها دون اعتماد عامل التقريب التراثي باستحضار المفاهيم اللغوية العربية التي توهم بالتقارب المعرفي رغم اختلاف ابستيمية كلا التصورين.

كما تتحدث في موضع آخر عن مفهوم البنية والنظام مستشهدة بقول عبد الرحمان الحاج صالح رائد اللسانيات العربية - وإن كنا لا نجهل طبيعة التأثر - غير أن هذا الإسهاب في العرض من شأنه إرباك الذات القارئة، يظهر ذلك في قولها: "من جملة

المميزات التي أقرَّها دي سوسير عند وصفه للسان بصفته موضوع اللسانيات أنه بُني على نظام مخصوص، أي أنه منظم تنظيمًا باطنيًا محكمًا...وفي نفس الوقت فالبنية مفهوم علمي استطاع الإنسان أن يدرك به الأشياء و الظواهر واستعمله لتفسيرها مثلما يقول الأستاذ عبد الرحمان الحاج صالح، البنية: وسيلة من الوسائل لحصر الجزئيات ولولا البنية لما استطاع الإنسان أن يفكر بل لما استطاع أن يدرك الإدراك الحسي للظواهر والأمور التي حوله"[30]، وقولها: "بحذرٍ شديد تمليه الأمانة العلمية وخوفًا من تقارب الأزمنة التاريخية يمكن أن نقارب بين هذين المفهومين أي اللسان في مقابل الكلام، وبين التفاعل الذي وضعه العرب القدماء عند حديثهم عن الوضع والاستعمال"[31]. فهذه الرؤية تبتعد عن التمهيد للمعرفة إلى محاولة نسج خيوط التقارب في البنية العميقة للمبتدئ من خلال اقتفاء آثار القدامى. تقول:" نحن ندري أن البعض من زملائنا يفضل استخدام مصطلحات أخرى...إلا أننا نحاول قدر الإمكان أن نحافظ على المصطلحات القديمة إذا كانت تفي بالمقصود وعندما يستحيل ذلك نلجأ إلى الترجمة وإلى الاعتماد على جهود الآخرين"[32].

وإن كان غرض هؤلاء اللسانيين "جعل القارئ العربي يستأنس باللسانيات في ضوء ما لديه من تصورات نحوية ولغوية قديمة "[33]، فإنها لا محالة تحمل إيديولوجيا سلبية في ذاتها، و الواقع أن الالتباس في تحديد مجال البحث اللساني قد وصل منذ زمن حدَّ التناقض في المؤلفات التمهيدية التي تروم ربط مبادئ اللسانيات بالتراث اللغوي العربي، فهذه الممارسة هي ما دفعت الكتابة اللسانية بعامة تفتقر التأصيل العلمي للنظرية اللسانية باعتماد أدوات معرفية توصل إلى نتائج دقيقة وهو عكس ما وصلت إليه المحاولات التمهيدية ومن بعدها اللسانيات العامة في الثقافة العربية ليصل -والحال كذلك - إلى درجة الإيمان بأصول تراثية للسانيات دي سوسير وتوليدية تشومسكي وتداولية أوستين في التراث اللغوي العربي الذي بات يتخذ شرعية قيمته من درجة تقاربه بهذه النظريات بله يجد المزية الكبرى في البحث عن الأسبقية.

ويمثل مؤلف عبد السلام المسدي التفكير اللساني في الحضارة العربية أنموذجا يؤكِّد على مضامين اللسانيات الحديثة بعملية التفتيش عن مبادئ اللسانيات في الموروث اللغوي العربي، إذ عمد إلى فك تركيباته وتحسس أركان منظومته ونسيج علائقه بالاعتماد على معطيات الدرس اللساني الحديث بما وفَّرته من سبل التمازج بين حقول المعرفة، فمقولة القراءة من حيث هي مجهر يستكشف النص بالنص فيجعلَ الكلام روايةً وحجةً على نفسه، يعود الفضل فيه إلى اللسانيات المعاصرة[34]، إذ يهدف بما ساقه إلى "محاولة سد الثغرة في كتابة تاريخ اللسانيات دون أن يقدم لنا رؤيته الخاصة وتصوره لتاريخ الفكر اللساني من الناحية المنهجية "[35]، فمعلوم أن البحث في اللغة ليس شيئا جديدًا في الفكر الإنساني فهو قديم قِدم اللغة نفسها، وهذا الوضع القديم للتأمل في طبيعة اللغة عبر العصور والحضارات وفي اللغات الإنسانية المختلفة هو ما يجعل التأريخ للفكر اللغوي مسألة على درجة قصوى من الصعوبة[36]، غير أن الجديد والموازي لهذه التصورات هو منهج دراسة هذه اللغة وهو كما أفرزه علم اللسان الحديث الذي يرام التعريف به، أي دراسة اللغة من حيث هي لذاتها، بعيدًا عن أي غايات اجتماعية أو حضارية، وهو ما أغفله عبد السلام المسدي الذي رام التراث لا اللغة مقصودا بذاته، ومن أجل ذاته وشتان بين المصادرتين، فإذا كان المفهوم اللساني للغة يجنح إلى التجريد بالانتقال من الطبيعة المحسوسة للحقائق إلى الاهتمام بتجريد السمات غير المتحوَّلة، فهذا يباين التمثُّل العربي الممثل في التراث الذي يمكن وسمه بالعناصر التركيبية الكبرى لهوية اللغة هذا من جهة، ومن جهة أخرى تستقل اللغة عن البحث في العناصر إلى تقصِّي البنية التي تنتظم وفقها تلك العناصر أي العلاقة بين مفردات النظام، وعليه فإن الموضوع ومجال البحث الذي يشتغل عليه المسدي يصدح بموقف حضاري فكري هدفه التعريف بالتراث، لا التمهيد للثقافة اللسانية باعتبارها منتوجًا غربيا يضبط آليات التفكير العلمي.

و المتأمل في موضوعات المؤلف يلفِها تتقوَّم على إشكالية البحث في اللغة البشرية، وقد اندرجت إشكالية أصل اللغة في قضية فكرية أعم تهمُّ نشأة الكلام عند الإنسان،

وحري بالبيان أن أصل اللغة لا يعدو أن يكون مجرد تخمينات تقديرية[37]، ولعل ما يعمّق شرعية هذا الطرح ما أعربت عنه اللسانيات الحديثة التي باتت في حِل عن هذه الموضوعات بل إنها لا تمنح هذه الإشكاليات أيَّ وزن معرفي أو منهجي إذ لا تضيف للبحث اللساني من حيث هو بحث في البنيات اللغوية معطيات ووقائع جديدة بل تظل في إطار تأملي افتراضي لا يمتُّ بصلة إلى التحليل اللساني، فهذه المفاهيم المطروقة لم تعد من قبيل اللسانيات التمهيدية بصفة خاصة واللسانيات العامة على وجه التحديد، فمجال علم اللغة في الكتابة التمهيدية قد تمحور أساسا على هذه القضايا التي شغلت حيّزاً كبيرا كما يرجع حافظ إسماعيلي علوي الخلل المنهجي في تحديد مجال البحث اللساني إلى طبيعة المصادر التي تعتمدها بعض الكتابات التمهيدية، وهي مصادر عامة بعيدة نسبيًا عن اللسانيات بمعناها العلمي الدقيق[38] ويصدق هذا الحكم على ما اعتمده المسدي كخلفية معرفية امتتح منها طروحاته تمثلت في المصادر العربية القديمة: الأعمال اللغوية والأدبية والفقهية والفلسفية إضافة إلى مقدمة ابن خلدون وكلها مصادر من التراث العربي الذي يؤكد على أن بعض اللسانيين الذين ساروا هذا السير قد انطلقوا من فكرة مفادها أن الثقافة العربية بما تحمله من تراث كفيل بإعادة وصف اللغة والتفاعل مع المستجدات الحديثة بعيدا عن التسليم للنظرية اللسانية الغربية موضوعاً ومنهجاً ومصطلحاً.

ويذهب مصطفى غلفان إلى أن المفاهيم اللسانية الواردة عند المسدي عامة، إذ اكتفى الباحث بالإشارة إلى بعض المعلومات الأولية في اللسانيات كاعتباطية الحدث اللساني وخطية الخطاب ومفهوم التوليد والتمييز بين التزامني و التعاقبي ومفاهيم أخرى كالعلامة اللغوية، والدال والمدلول، أما اللسانيات كجهاز تصوري ومفهومات إجرائية وتقنيات تحليل فإن المؤلف خِلو منها[39]، فالنظرية اللسانية العلمية بما هي عليه من تصورات وأسس تسعى لتَمثُّل أدوات المنهج العلمي المعاصر في البحث عن الحقيقة العلمية، فكل نشاط إنساني وكل حقل من حقول المعرفة البشرية، يتوفر على مجموعة كبيرة من المفاهيم التي ترتبط فيما بينها داخل الحقل الواحد على هيئة نظام متكامل وتكون على

علاقات بمفاهيم الحقول الأخرى، كما يتوفر كل حقل على مجموعة كبيرة من المصطلحات التي تعبر عن مفاهيمه لغويًا[40]، فإعمال المفاهيم اللسانية تبعًا لذلك في التراث أصعب من تحصيل هذه المفاهيم في حد ذاتها وإدراكها في مصادرها أو نشرها بلسان غير اللسان الذي اكتشفت فيه، أو قل إن إعمالها في سياق حضاري غير السياق الذي نشأت فيه يمثل مستوى من الفهم والامتلاك أرقى من الفهم الأول[41]، وهو في صعوبته يكاد يضاهي صعوبة ابتكارها من أصلها لأنه يقتضي إدراكا لحقائق العلم في خصائصه المجردة وفي ماهيته مهما كانت الملابسات الطارئة.

2.4. الاجتزاء ضرب في التحليل المنهجي للكتابة التمهيدية: إن تعامل الكتابة التمهيدية مع تقنيات التحليل عمومًا يفصح عن خللٍ في العرض؛ فالنظر في المناهج اللسانية بِعدِّها أجهزة مفاهيمية لها أدواتها وآلياتها الخاصة الواصفة هو ما قصرت عنه الكتابة التمهيدية ومما هو جليّ أن المعرفة لا تستقر فهي نتاج تراكم، وعليه فهي صنو التجدد هذا الأخير الذي لا تواكبه الممارسة الفعلية للسانيين بهدف بناء النظرية اللسانية العربية، ولم يأخذوه بعين الاعتبار إبان تقديمهم لأسس علوم اللسان ما حدا بحافظ إسماعيلي علوي إلى القول بأنها "لا تواكب في مجملها التطورات التي حصلت في البحث اللساني الحديث، وما عرفته النظريات من تغيرات وتصورات جديدة، وتكاد المرحلة التي تتناولها الكتابة التمهيدية هي المرحلة البنيوية في إطارها البنيوي في انجلترا"[42]، والتي ظهرت مع الدعوة للمنهج الوصفي الذي يتقوَّم على البحث في مجالات اللسانيات ومستوياتها الصوتية والصرفية والدلالية والتركيبية خلال نقطة زمنية ما، وقد يتعدى بعض المؤلفين إطار التقديم والتمهيد في نفس الكتابة في محاولة لتطبيق بعض هذه المبادئ العامة على اللغة العربية خاصة المستوى الصوتي الذي احتل حيزًا واسعا في الكتابة التمهيدية قياسًا بالمستويات الأخرى، فاجتزاء التناوُل قد ساهم في تعزيز الإشكال يقول أحمد مختار عمر عن علم الأصوات :"وهو العلم الذي تقدم مباحثه للقارئ الآن تحت عنوان- دراسة الصوت اللغوي- وإذا كانت المكتبة قد حوت بضعة كتب في علم الأصوات اللغوية، فهي ما تزال فقيرة جدا في هذا اللون من البحوث بالإضافة إلى أن

التطور السريع لهذا العلم يسمح في أيّ لحظة بعدد آخر من الكتب"[43]، والملاحظ أن هذه المقدمة كفيلة ببيان طبيعة المعرفة الملقاة بغية تقريب القارئ من هذا الفرع اللساني الحديث بكل مباحثه، والذي عدَّه المظهر المتطور لعلم اللغة الحديث.

إن حديث أحمد مختار عمر في أول فصل عقده عن الفونيمات التركيبية ومن بعده فوق التركيبية، ينبئ بتعمق في الطرح فالقارئ وهو مستعد لتلقي مفاهيم علم الأصوات يميل بداية إلى استيعاب مفهوم الفونيم كنظرية مستقلة ليتبين ماهيته فلا يقع في عملية المقارنة التي قد تخل باستيعابه بين المفهوم اللغوي والتمثُّلِ العربيّ له، إذ يرى بعض الدارسين أن تقديمه للمفاهيم و المصطلحات الصوتية جديد فمثلا عند تعرضه لأكوستيكية الصوت يقوم بعملية الشرح وكأنه أمام قارئ عربي مطَّلع على جزء من الدراسات الصوتية الغربية بله ملم بالدراسات الصوتية العربية أيضا، وهو ما هو غير حاصل في واقع الدرس اللساني العربي فقوله " يُعنى بالتردد Fréquency عدد الدورات الكاملة في الثانية والجسم الثقيل يتذبذب بصورة أبطأ من الجسم الخفيف، والشوكة الرنانة ذات الذراعين الطويلين تتذبذب أبطأ من الشوكة ذات الذراعين القصيرين، والكتلة الكبيرة والمتسعة تتذبذب أبطأ من الكتلة الصغيرة أو الضيقة، والوتر الطويل يتذبذب أبطأ من الوتر القصير"[44] يجنح لا محالة إلى الصعوبة، بل ونفور القارئ من مثل هذه الطريقة في الشحذ رغم ما أراده المؤلف من التبسيط.

ومن جهة أخرى فالملاحظ على ملاحق الكتاب الذي تضمَّن أهمية علم الأصوات ومجالاته التطبيقية من جهة، إضافة إلى المصطلحات الانجليزية التي بلغت خمسة مائة مصطلح يدل على الكثرة التي من شأنها أن تعيق التحصيل خاصة و إن كانت هذه الأخيرة تتسم بالعلمية وهو ما ينطبق أيضا على مراجع الكتاب الذي يُبين عن مادته ومتنه " فليس بخافٍ على المهتمين بالبحث اللساني المتخصص أن كثيرا من اللسانيين يعتبرون علم الأصوات علمًا تكميليًا للسانيات، إنه أحد الأنساق الفرعية الهامشية في الدراسة اللسانية لكن ما تعيده الكتابة اللسانية التمهيدية من موضوعات عامة في علم الأصوات حاصرة كلامها في قضايا نظرية ومحطات تاريخية معينة لا تتجاوزها، كما لو أن الدرس

الصوتي لم يتقدم نظريًا أو منهجيًا، يدعو إلى التفكير مليًا في أمر عرض الكتابة التمهيدية للقضايا الصوتية "[45].كما يذهب مختار عمر إلى بيان نجاعة أسلوبه في العرض ذامًا بذلك النهج العربي، يقول: "وقد رأيت من الأفضل والأيسر أن أصنف الآراء لا على أساس المناطق الجغرافية أو الأشخاص، وإنما على أساس التفكير أو المنهج مخالفا بذلك طريقة Kransby التي قامت على عرض جهود كل مدرسة على حده، وجهود كل فرد داخل المدرسة على انفراد مما أوقعه في التكرار وأوقع القارئ معه في الحيرة، وحرمه من التصورات الكلية للنظرية هذا مع اعترافنا باحتواء الكتاب على مادة علمية لا تجدها في أي كتاب آخر"[46]. فأسلوب الانتقاء المعتمد في إيصال المادة مفهومًا ومصطلحًا إلى القارئ العربي من الأهمية بمكان غير أن إيراد الترجمات العديدة للمصطلح الواحد من شأنه أن يجنح إلى نقيض المراد، فأن يطلق على الفونيم (صوتيم وصوت وصوت مجرد، وصوتية ومستصوت و فونمية ولافظ...) وأن يذكر الألوفون في مقابل الصوتم التعاملي والمتغير الصوتي وأيضا وسم الصوت بالألوفون والصوت اللغوي والصوت الكلامي. فهذه العدّة المصطلحية من شأنها صناعة الهوة والفجوة بين اللغة وتلقيها؛ أي عندما يكون ذهن المتلقي لأول مرة في سجال مع دوال هذه المصطلحات بله عن مفاهيمها فإن ذلك يؤكد على طابع الغرابة، ومن ثم الصعوبة التي لا تستأنس، والواقع أن ما يمكن أن يحمل على الكتابة التمهيدية في علاقتها بتقنيات التحليل تصورها للأسس المنهجية ما يلي:[47]

- إن الكتابة التمهيدية العربية تتكلم بإسهاب مفرط عن موضوعات علم اللغة الحديث ومجال الدراسة فيه في إطار تصور قديم للبحث اللساني دون أن تعرض للكيفية التي يتم بها تناول هذه الموضوعات لسانيا، سواء في إطار المنهج الوصفي أم التاريخي أم التقابلي.
- لا تقدَّم الكتابة التمهيدية للمطلع عليها الخطوات المنهجية المتبعة في التحليل اللساني عامة، وفي صورته الوصفية بصفة خاصة ومعلوم أن هذه الخطوات المنهجية هي التي تحقق للباحث الواصف تناولا موضوعيا للغة، وليس في الكتابة التمهيدية أي حديث مفصل ودقيق عن المفاهيم الإجرائية المتبعة في التحليل، فلا حديث في الغالب الأعمِّ

عن مفهوم المتن اللغوي باعتباره مادة البحث اللغوي ولا عن شروط تكوينه من تجانس وتمثيلية وتحديد زماني، كما أن المفاهيم المستعملة بكثرة مثل التقطيع والتوزيع والوظيفة والاستبدال والتعاقب والعلاقة لا تعرض بالتوضيح اللازم ، بل إن بعض هذه المفاهيم المستعملة لا وجود له إطلاقا في بعض الكتابات التمهيدية العربية. فالمفاهيم السابقة تشكل في الجوهر طرق التحليل التي حاولت بواسطتها اللسانيات الوصفية ضبط العلاقات الصورية بين وحدات اللغة في مختلف مستوياتها.

- يكتفي المؤلفون العرب بعرض مفاهيم لسانية عامة جدا كالقول بأن اللسان نظام وعلى المدخل البنوي للغة يقوم صرح علم اللغة المعاصر.
- إن تعامل الكتابة التمهيدية مع تقنيات التحليل اللساني ظل عموما منحصرا في تقديم معلومات تعود لبداية هذا القرن في صيغ يغلب عليها الطابع الأدبي ، أما النفوذ إلى عمق المناهج اللسانية باعتبارها أجهزة مفاهيمية لها أدواتها الواصفة التي تضبط عملية التحليل الوصفي للغة معينة فذلك مالم تتمكن الكتابة التمهيدية العربية من القيام به بشكل كاف.

فالمنهجية اللسانية التي تظهر في هذا الصنف من الكتابة في وصف اللغة العربية تفيد تقديم مناهج حديثة في التحليل وهو ما تفتقده الكتابة اللسانية التمهيدية فمن القليل النادر وجود صنف يؤلف فيه وفي حساباته تبيين التقنية المعتمدة في التحليل المباشر للغة العربية كونها موضوع الدرس اللساني العربي التمهيدي.

3.4.الكتابة اللسانية التمهيدية بين النظرية والتطبيق: معلوم أن النظرية اللسانية توسَم بالتجدد والتطور، إن على مستوى النظرية أم على مستوى الأنموذج فالأولى جعلته قاصرًا على المرحلة البنيوية التي تم تجاوزها سواءً في إطار البحث اللساني العام أم البحث العلمي الصِّرف، وهو ما نجده خِلْوًا في المؤلفات التمهيدية إذ" تخلُو من أي ربط بين ما تقدِّمُه من معلومات لغوية والواقع اللغوي العربي، وتكثر الكتابات التمهيدية

العربية من المثال التطبيقي المأخوذ مباشرة من اللغات الأجنبية خاصة اللغة الانجليزية. ويعطي عدم انشغال الكتابة التمهيدية بأمثلة من اللغة العربية الانطباع لدى القارئ عامة أو المبتدئ على وجه الخصوص أنّ هذه المبادئ المعروضة عليه لا تمسُّ اللغة العربية في شيء ولا تنطبق عليها وبالتالي لا تهمها "[48].

فالكتابات التمهيدية برمتها قد أفاضت في الطرح البنيوي السوسيري نظرا لأن الحقبة الزمنية التي ظهرت فيها اللسانيات حقبة بنيوية بامتياز فالأنموذج اللساني قد قدّم مفهوم البنية كمبدأ فاصل في علم اللغة ، غير أن الملاحظ أن مفهوم البنية الذي يتقوم على مجموعة العلاقات الرابطة بين العناصر يخالف العملية التطبيقية لهذا المفهوم على اللغة العربية وهو ما يضح جليا في المؤلفات التمهيدية، وممَّا هو معروف أنَّ التطبيق صِنو التنظير، وأن النظر تعقبه الممارسة فهي من الصعوبة بمكان خاصة إذا كان المنهج النظري المعتمد غير بيِّن القسمات فهو منهج لساني علمي حديث يتميز بسمة التجريد وهو ما تُفتقد مقاربته في التجربة اللسانية العربية ف" تغييب التطبيق على اللغة العربية والاكتفاء بالعرض النظري المجرد في تكوين جملة من القناعات الفكرية السلبية إزاء جدوى اللسانيات وأهميتها بالنسبة للغة العربية لدى المهتمين باللسانيات غير المختصين فيها، بل ذهب بعضهم أبعد من ذلك مُعلنا أن بحث قضايا اللغة العربية من وجهة لغوية حديثة لتطوير قواعد اللغة العربية على نمط الدراسات اللغوية عند الغربيين دعوة باطلة".[49]

ولعلَّ من بين ما يُعاب على الكتابة التمهيدية غياب آلية التطبيق المنهجي إلا أنّ الأنموذج التوليدي الذي تمثله ميشال زكريا[50] كأحد اللسانيين التمهيديين الذين نادوا بالتنظير والتطبيق على حد سواء يُبين عن محاولة لمقاربة هذه المزاوجة مقاربة علمية. إذ يقول في مقدمة كتابه الألسنية التوليدية التحويلية وقواعد اللغة العربية:" يسعى هذا الكتاب إلى تقريب الألسنية في بُعدها النظري والتطبيقي من القارئ العربي، فكلُّ ما كتبَ في هذا الموضوع هو ولا شك من الجهود البناءة في تعريف هذا العلم ونشره في العالم العربي

ومساهمتنا هذه تنضم إلى الجهود السابقة في هذا المضمار، فبعد أن بدأنا في كتابنا الألسنية (علم اللغة الحديث) مبادئها وأعلامها، محاولة في تعريف المبادئ العامة لهذا العلم وفي تقديم رواده، نحاول في هذا الكتاب أن نحقق نقلة جديدة من حيث الموضوع تتلخص في المساهمة في تعميق دراسة قواعد اللغة العربية على ضوء النظرية التوليدية والتحويلية"[51].

فالناظر في هذه النماذج وغيرها من الكتابة التمهيدية يجد التبسيط مقترنا بالكلام العام والأقرب للتحليل اللساني غير المضبوط علميا، فهو لا يتوخَّى مبادئ المنهج اللساني بل يقف عند حدود النقل ومحاولة المقابلة بين ما هو ماثل في اللغة الانجليزية، إضافة إلى إشكالية اللغة التي مثلت الحائل هي الأخرى بين تمثل واستيعاب المفاهيم ناهيك عن محاولة تفعيلها في اللسان العربي، فالمصادر الأساسية مكتوبة بلغة أجنبية وهي لغة العلم التي باتت مغيَّبة على مستوى الواقع اللغوي العربي وهو ما جعلهم يكتفون بمصادر العلم المترجمة لتكون هذه النسخة قراءة على قراءة ومنه ستفتقد للعديد من ميكانيزمات المفاهيم العلمية والمصطلحات الأكاديمية، ولقد اشتغل ميشال زكريا على إعادة النظر في طرائق التحليل اللغوي العربي في ظل ما جاءت به النظرية التوليدية محاولاً بناء ألسنية عربية يقول:" ففي الواقع لا تتَّخذ النظرية مبرراتها بالنسبة لنا ولا تكون فعالة ما لمْ نقرنها بالتطبيق الواضح والمفيد في قضايا لغتنا "[52]، فالأمثلة التي سيقت بالعربية ضمن الأنموذج التوليدي تعتريها البساطة على مستوى قضية تحديد بنية الجملة البسيطة في اللغة العربية، إذ تمثل الكتابة التمهيدية لبنية الجملة البسيطة بطرق متعددة مثالها المنظور التوليدي للأنموذج الميشالي:[53]

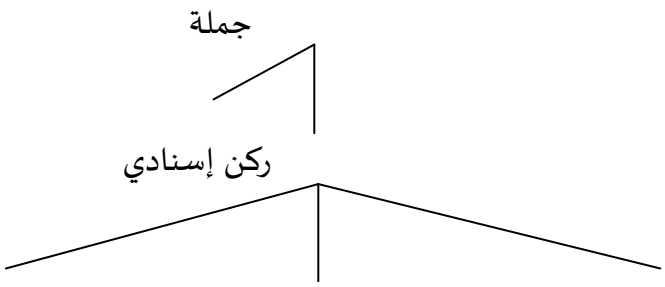

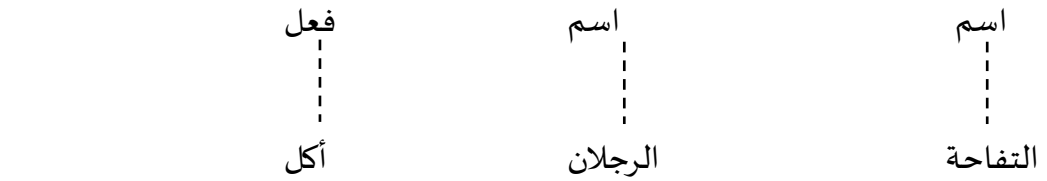

ولقد ركَّز ميشال زكريا في قراءته التمهيدية على الجملة باعتبارها الوحدة الأساس التي تقوم عليها القواعد، وكون التحليل اللساني يبحث فيها غير أن النظرية التوليدية التحويلية التي يرمي تطبيق مبادئها هي بالأساس نظرية غربية الأصول تبحث في تحليل اللغة الانجليزية التي تتباين عن رديفتها العربية، وهو ما عمَّق الإشكال حول تطبيق معطيات الألسنية التوليدية على نظام اللغة العربية، إذ ينطلق زكريا من التقليد اللغوي العربي آخذا بالآراء التي تسهم في تطويع المنهج الغربي ممثلا في مبادئ النظرية التوليدية التحويلية وكأن العمل هو التوفيق بين معطيات الدرس النحوي ومبادئ التوليدية وتتألف الجملة عند ميشال زكريا من ركنين أساسين هما ركن الإسناد و ركن التكملة ؛إذ يتكون ركن الإسناد من الفعل والفاعل والمفعول، ويستدل زكريا على نجاعة هذا الأنموذج بأن ترتيب عناصر الجملة في البنية العميقة هي من نمط (ف ،فا، مف) ذلك أنه الترتيب الذي اعتمدته العربية في نظامها[54] غير أن الملاحظ على هذه القاعدة (قاعدة الإسناد) أن تطبيقها يقتصر في الجملة العربية على الفعل المتعدي فقط، مثلا:

أكل	الرجلان	التفاحة
تام|متعدي	فاعل	مفعول به
ركن فعلي	ركن اسمي	ركن اسمي

أما الفعل اللازم ك: قام الرجل، فإنه يحلل كالآتي:

قام	الرجل
ركن فعلي	ركن اسمي

إذ لم يقدِّم ميشال زكريا تحليلا لغويا للبنى التركيبية التي تتأسس على الفعل اللازم في اللغة العربية وقد اقتصرت تحليلاته على محاولة استثمار القواعد العربية في القالب

التوليدي التحويلي. ويرى مصطفى غلفان بشأن الأمثلة المقدمة إشكالات ممثلة فيما يلي:[55]

- إن التحليلات المقترحة تختلف اختلافًا واضحًا فيما يخص موقع المكونات الأساسية للجملة العربية البسيطة وهي الفعل والفاعل والمفعول.
- عدم ملائمة التحليلات مع البنية المركبة للجملة العربية، وكأن هناك ترجمة حرفية للتشجيرات المقدمة باعتبارها أقرب إلى بنية اللغات الهندية الأولية.
- إنّ النموذج التشجيري قد لا يُفيد المهتم باللغة العربية في إطار النماذج التوليدية لأنها لا تُقدم الأسس النظرية والاختيارية في تحديد بنية الجملة العربية البسيطة

5. خاتمة:

تمثلت نتائج البحث فيما يلي:

1-إن الغاية الأساسية للكتابة اللسانية التمهيدية هي تقريب المعرفة اللسانية الغربية للقارئ العربي؛ غير أن جلَّ الكتابات التمهيدية قد قاربت هذا الهدف ولم تُحققه نظراً لجملة من الإشكالات التي أعاقت تَمَثُّل نماذج النظريات بصفة كلية من بينها عدم مواكبة التطور الحاصل على مستوى البحث اللساني العام ذلك أن المعرفة اللسانية في تطور دائم من حيث المصطلح والمفهوم فما كان يصدق قبل حقبة زمنية معينة سيتغير بفعل التطور المعرفي الحاصل في حلقة العلوم اللسانية.

2- مما يلاحظ على الكتابات التمهيدية الخلط بين قضايا فقه اللغة وعلم اللغة (اللسانيات)، كالحديث عن مسألة نشأة اللغة وهو ما يظهر جليا في مؤلف علي عبد الواحد وافي (علم اللغة) إذ أحدث ارتباكا كبيرا لدى القارئ فيُعدُّ هذا الكتاب فاتحة الكتابة التعريفية بالمناهج اللسانية الحديثة ويُعزى إليه تثبيت العديد من المفاهيم التي اعتُبرت مسلَّمات لفترة زمنية ليست بالقليلة ما احتاج إلى إعادة استدراك كثير من الحقائق سعى من خلالها اللسانيون إلى تصحيحها من خلال المؤلفات التي شهدتها اللسانيات العربية مؤخراً.

3- لابد من مراعاة حاجات القارئ المبتدئ أثناء كتابة مؤلفات لسانية تمهيدية؛ إذ الغاية تبسيط المعرفة اللسانية من خلال الضبط الدقيق لعنوان الكتاب ومراعاة توافق عنوانه ومضمونَه وخطاب مقدِّمته وكذا التسلسل في عرض المسائل المطروحة في مضمون الكتاب فتسلسل المعلومات من البساطة إلى التعقيد أسُّ العملية الاستقطابية للقارئ إذ كلما سارت التلقينية في سيرة تدريجية كلما كانت مردودية الاستجابة للفهم والاستثمار أكثر نفعا.

4- لابد من تحديد مجال البحث اللساني تحديدا دقيقا سواء كان صوتا أو صرفا أو تركيبا أو دلالة، ومواكبة مستجدات البحث اللساني من نظريات إذ يتبين من مراجعة بسيطة لموضوعاتها أنها حصرت مجال علم اللغة في نطاقه العام فنظرت إليه نظرة حضارية، تاريخية، واجتماعية إذ لم تهتم بالمبادئ اللسانية المتعلقة بالمناهج كالتوليدية التحويلية ونظرية النحو الوظيفي اللغة العربية إلا في حالات نادرة .

5- يبدو واضحا فقر المكتبة العربية من الكتب التي ألفت في هذا النوع من الموضوعات ولعل ذلك راجع إلى طبيعة الأوضاع التي كانت سائدة في تلك الفترة فنقل المعرفة كان بطيئا بالمقارنة بما جدَّ فيما بعد.

6- بالرغم من تحقيق بعض المؤلفات التمهيدية للغاية المرجوة منها ألا وهي تقريب المعرفة اللسانية الغربية إلا أن هذا لا يعني أن مضمون المعرفة المبسطة قد تضمَّن قيماً علميةً تعمل على تكريس وضعية الاستيعاب السليم للمفاهيم .

7- اقتصار اللسانيين التمهيديين على النموذج البنيوي وإهمالهم للمستجدات الحاصلة على المستوى النظري كنموذج النحو التوليدي والنحو الوظيفي أدى باللساني العربي إلى عدم فهم هذه النظريات وخاصة في الجانب التطبيقي منها الذي يهدف إلى تطبيق نموذج لساني غربي على اللغة العربية.

6. قائمة الإحالات

[1] تُعرَّف اللسانيات Linguistic في المعاجم اللسانية المختصة على أنها الدراسة العلمية للغة؛ ويصفها جورج مونان بالموضوعية، والوصفية والتفسيرية لبنية واشتغال اللغات الطبيعية الإنسانية وتطورها زمنيا. ينظر: جورج مونان، معجم اللسانيات، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ،بيروت، لبنان، ط1، 2012م ،ص370.

[2] مبارك حنون، مدخل إلى لسانيات سوسير، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب ، 1987م ،ص05.

[3] عبد الصبور شاهين، في علم اللغة العام، مؤسسة الرسالة، بيروت ، لبنان، ط6، 1993م، ص03.

[4] حافظ إسماعيل علوي، اللسانيات في الثقافة العربية دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2009 م، ص112.

[5] ينظر: سامي عيد حنا وشرف الدين الراجي، مبادئ علم اللسانيات الحديثة، دار المعرفة الجامعية، دط، دت،ص06.

[6] ينظر: مصطفى غلفان، اللسانيات في الثقافة االعربية الحديثة - حفريات النشأة و التكوين-، الدار البيضاء، المغرب ، ط1، 2006م، ص143.

[7] مصطفى غلفان، اللسانيات العربية الحديثة- دراسة نقدية في الأسس النظرية والمنهجية، سلسلة رسائل وأطروحات (4)، جامعة الحسن الثاني، عين الشق ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مطبعة فضالة ،دط ، 1998م، ص86،87.

[8] مصطفى غلفان، المرجع نفسه، ص99.

[9] ينظر: سامي عباد حنا وشرف الدين الراجحي، مبادئ علم اللسانيات الحديث، ص05.

[10] ينظر: خليفة الميساوي، المصطلح اللساني وتأسيس المفهوم، دار الأمان، الرباط، المغرب ،ط1 ،2013م، ص26-27.

[11] حافظ إسماعيلي علوي، تلقي اللسانيات في الثقافة العربية، ص99.

[12] ينظر: المرجع نفسه، ص100.

[13] محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة العربية، بيروت، دط ،د ت، ص 06.

[14] ينظر: المرجع نفسه. ص 44.

[15] ينظر: مصطفى غلفان، في اللسانيات العامة تاريخها، طبيعتها، موضوعها، مفاهيمها، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، ط1، 2010م ،ص06.

[16] منذر عياشي، اللسانيات والحضارة مساهمة في علم طرح القضايا وإنشاء المفاهيم، عالم الكتب الحديث، عمان، ط1، 2013م، ص6-7.

[17] ينتقد عبد الرحمان الحاج صالح حال الدراسة اللسانية العربية ويصفه بالفراغ المهُول الذي خيَّم بالقارئ العربي، ويرجع هذا الوصف إلى أن أصحاب هذه المؤلفات ليسوا من أهل الاختصاص، فمعظمهم لهم تخصصات أخرى كعلم الاجتماع وعلم النفس أو تاريخ الأدب، وهو ما يجعلهم بعيدين عن مضامينها الأساسية مما يؤثِّر على قيمتها، ويَصدُق هذا على تخصص علي عبد الواحد وافي فهو أستاذ متخصِّص في علم الفلسفة فكان له بذلك كبير الأثر في عدم استيعاب القارئ العربي مبادئ العلم الحديث.ينظر: عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في علوم اللسان، دار موفم للنشر،الجزائر ، 2012م ، ص08.

[18] ينظر: علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، دار نهضة، مصر، القاهرة، ط9، 2004 م، ص07.

[19] ينظر: المرجع نفسه، ص08.

(20) ينظر: عبد السلام المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، الدار التونسية للنشر، تونس،1986م، ص19.

(21) ينظر: حلمي خليل، علم اللغة البنيوي، دراسة في الفكر اللغوي الحديث، دار المعرفة الجامعية، مصر، (د.ط)، (د.ت)، ص144-145.

(22) عبد السلام المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، ص19.

(23) ينظر: مصطفى غلفان، اللسانيات العربية الحديثة -حفريات النشأة والتكوين-، ص142.

(24) المرجع نفسه، ص140.

(25) المرجع نفسه، ص140-141.

(26) ينظر: حافظ اسماعيلي علوي وامحمد الملاخ، قضايا ابستيمولوجية في اللسانيات، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط1، 2009م.ص273 .

(27) ينظر: مصطفى غلفان، اللسانيات العربية الحديثة، ص105.

(28) ينظر: محمود فهمي حجازي، مدخل إلى علم اللغة، المجالات والاتجاهات، الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006م.، ص03.

(29) خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، دار القصبة للنشر، الجزائر، ط2 ،2006 م، ص10.

(30) المرجع نفسه، ص16.

(31) المرجع نفسه، ص34.

(32) المرجع نفسه، ص38.

(33) مصطفى غلفان، اللسانيات العربية الحديثة، ص106.

(34) ينظر: عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، 1986م، ط2، ص368.

(35) مصطفى غلفان، اللسانيات العربية أسئلة المنهج، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2013م. ص189.

(36) ينظر: المرجع نفسه ، ص192.

(37) ينظر: المرجع نفسه ، ص194.

(38) ينظر: المرجع نفسه، ص199.

(39) ينظر: المرجع نفسه، ص216.

(40) ينظر: خليفة الميساوي، المصطلح اللساني وتأسيس المفهوم، ص15.

(41) ينظر: عز الدين مجدوب، المنوال النحوي العربي قراءة لسانية جديدة، دار محمد علي الحامي للنشر والتوزيع، كلية الآداب والعلوم الإنسانية-سوسة، ط1، 1998م،ص42-43.

(42) حافظ إسماعيلي علوي وامحمد الملاخ، قضايا ابستيمولوجية في اللسانيات، ص175.

(43) أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، دار عالم الكتب للنشر، القاهرة، مصر، (د.ط)، 1991م، ص14.

(44) المرجع نفسه، ص71.

(45) مصطفى غلفان، اللسانيات العربية الحديثة، دراسة نقدية في الأسس النظرية والمنهجية، ص112.

(46) أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، ص171.

[47] مصطفى غلفان، اللسانيات العربية، دراسة نقدية في الأسس النظرية والمنهجية، 115 ،116.

[48] المرجع نفسه، ص120.

(49) المرجع نفسه، ص 120.

[50] تأثر ميشال زكريا بنظرية تشومسكي اللسانية، وحاول تقديم قراءة لملامح هذه النظرية وفق رؤية عربية معاصرة لتقديمها للقارئ العربي في قالب يُتيح له فهم منطلقاتها الفكرية، إذ حاول تأسيس أنموذج توليدي على كلا المستويين النظري والتطبيقي، فالنظرية التوليدية استطاعت نقل الحياة اللسانية من مرحلة بنيوي إلى مرحلة جديدة تميزت باستخدام المنهج العلمي الذهبي لتحليل النحو الشكلي فأصبح الأسلوب الاستنباطي الاستنتاجي همّ النظرية التوليدية التحويلية. ينظر: مازن الوعر، قضايا أساسية في علم اللسان الحديث، دار طالاس ،دمشق ، ط1، 1988م، ص113-115.

[51] ميشال زكريا، الألسنية التوليدية التحويلية وقواعد اللغة العربية (الجملة البسيطة)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت ،لبنان، ص07.

[52] المرجع نفسه، ص5.

[53] المرجع نفسه، ص30.

[54] ينظرالمرجع نفسه، ص53،45.

[55] مصطفى غلفان، اللسانيات العربية دراسة نقدية في الأسس النظرية والمنهجية، ص123.